الأرض تقريباً. بعد ذلك جرّه من يده بقوّة، ولحق بزوجته، التي ظلّت تسير في الطابور وتتلفّت. صاح في وجهها بنفاد صبر:

«ابنك هذا قتلني اليوم!»

«اهدأ. يجب أن تكون هادئاً في هذه الساعة.. هادئاً تماماً».

***

بعد انتظار دام ساعات تحرّكت الحافلة بركّابها من جديد. مرّت من تحت بوّابة هائلة، واجتازت عدداً من نقاط التفتيش، وراحت تخترق اللّيل مرّة أخرى. كان على المسافرين أن يجتازوا، بعد قليل، حدود بلد آخر، إلاّ أنّهم كانوا أقلّ توتّراً هذه المرّة. وأدخل السائق شريطاً في جهاز التسجيل، فارتفع ضجيجُ موسيقى، وصوتُ مطربة تغنّي عن وجع الفراق، فأجهشت امرأةٌ بالبكاء، وطلب رجل من السائق أن يغلق المسجل، أو يبدّل الأغنية. فأبدل السائق الشريط، وسكن نشيج الامرأة بعد حين. وتلفّت الركّابُ يبحثون عن الطفل الذي أضاع كرته الزجاجية ليمازحوه، غير أنّهم وجدوا المقعدين، في منتصف الحافلة – حيث كانت تجلس العائلةُ الصغيرة – خاليين، وعلى أحدهما تنبطح، مهملةً، قنينةُ مياه معدنية فارغة. لم يتفوّه أحد من المسافرين بحرف عن سبب غياب الطفل ووالديه، في حين تابعت الحافلةُ مسيرتها في الظلمة المحيطة. وبعد فترة فوجئ المسافرون بواحد منهم، كان يجلس في المقدّمة، يهتف فوق ضجيج المسجل، رافعاً بين أصابعه كرةَ الزجاج من شقّ وراء مقعد السائق:

«هذه دُعْبُلَةُ الولد الصغير!»

تلفتت العيونُ تنظر إليها. وتنقلت الكرةُ الزجاجية من يد إلى يد. ثم أعيدت إلى الرَّجُل الذي عثر عليها. رفعها الرَّجل بين أصابعه تحت أضواء المصابيح المشتعلة في سقف الحافلة، فاخترقتها الأشعةُ من كلّ جانب، وسطعتْ في يده. تأمّل صفاءَها المتألّق، وخطوطَ ألوانها الزاهية. كان في باطنها عالم مدهش من الألوان المتجاورة، تتمايل معاً، تصعد وتهبط، تتباعد وتتعانق، مثل نغمات لحن عذب. ظلّ الرجل ساهماً يتأمّل عالم الكرة الزجاجية الساحر لحظة طويلة، ثم التفت صوب المقعدين الفارغين، ودحرج الكرة على الأرضية المعدنية، يعيدها إلى الطفل، الذي كانت روحه ماتزال تملأ فضاء الحافلة، وترافقهم نحو مصائرهم المجهولة. ظلّت الكرة تتحرّك بعد ذلك تائهة، تحت المقعدين الخاليين، كلّما مالت، أو تأرجحت الحافلة، وهي تتابع رحلتها الطويلة في عتمة اللّيل.

بغداد

ملاءات بيضاء

(من وحي الذكرى المئوية الأولى للسينما)

علي عوض الله كرار

دَخَلَ السينما... أظلمتِ الصالة.. شدَّ الملاءةَ البيضاء. بسطها على عينيه ونام...

⁂

اشترت أمي ملاءةً بيضاء لسريري مُؤطَّرةً بلون البحر. نمتُ بها وقمت. قالت لي أمّي بعد أربعين سنة من شرائها الملاءة هذه: «ظللتَ تبكي تبكي تبكي. ما بِك؟. قلتَ لي: لم أرَ شيئاً. أعطيني ثلاثةَ قروش. أخذتها سعيداً ونمتَ، ومع منتصف اللّيل قمتَ تبكي. ما بك؟. لم أر شيئاً. عند الظهر وكنتَ أنتَ من المدرسةَ عُدتَ. تغدّيتَ ونمتَ على غير عادتك. ظننتُكَ متعباً. أو أنّ بوادر مرض ما يقترب منك. كشفتُ عنك الملاءة قليلاً. تحسّستُ جبهتك. وقعتْ عيني على تذكرة غير مقطوعة لدخول سينما «باكوس» وبجنبها وجهك الغارق في النوم مبتسماً على غير العادة».

⁂

مات أبي...

لفّوه بملاءة ناصعة البياض. ومرّروه من بين دموعي وحطّوه في النعش، وساروا. وأنا بين مرفقين كبيرين أجترُّ زَعَلي منه: دوماً يذهب للسينما وحده ولا يأخذني!

⁂

«تحت الشجر يا وهيبه

ياما أكلنا برتقال»..

كذّاب يا محمّد يا رشدي لا أنت من لندن. ولا هي من باريس. بخوفك من ذكر الحقيقة خُنتَ طفولتك المغزولة تحت الملاءة... عبد الرحمن الأبنودي ضحك عليك وأفهمك: «كلماتي هذه تحضّ على الشجاعة ومواجهة العالم».. والنتيجة: كل واحد نزع شجرة خبّأها في جيبه لحين التقائه بوهيبته. كل واحد – وهذا من حقّه – أصبح خائفاً. ربما حين يتلقي بالحبيبة لا يلقى الشجرة. فكيف يقشّر برتقالتيْها ويأكلهما على مهل لذيذ دون أن يجهز عدداً وفيراً من البرتقالات الحقيقيّة تمويهاً؟.

⁂

قبل خمس سنوات من حكاية أمي لي عن الملاءة البيضاء المشتراة من أربعين سنةً لسريري، زارني طلبةٌ أصدقاء. كان الواحد منهم ينظر إلى الآخر، وعيناي تتنقّل بينهم. قام أوّلهم وقال: «أنتَ لستَ بخيلاً». وسحب الملاءة البيضاء المؤطرة بلون البحر. خمسة وثلاثون عاماً ولم تَبْلَ تماماً بعد. قام الثاني وفتّش في أدراج ماكينة أمّي وأخرج مقصّاً فَتَحَ نصليه على آخرهما وقصّ بحرين متوازيين. فيما الثالث المتربّع أرضاً قال: غداً سنقوم بمظاهرة ونحرقُ علم الأوغاد!

⁂

دخلتُ السينما. أظلمتِ الصالة. اختطفت الملاءةُ البيضاءُ جسمي واختفتْ.. قالت السينما: «الجريمة لا تفيد».. وقالت الصالة: «الخطّافة لم تنتبه لانسلات عينيه من محجريهما ولا لدحرجة فَرْدَتَي السَّمْع مِنْ على صدْغيه».. وأشارَتْ سيناريوهاتُ أجاثا كريستي بأطرافها الأخيرة إلى جبهتي، فانهالت عليها المعاول والفؤوس تحفر وتحفر وتحفر إلى أن أشاحت العجوز أجاثا بوجهها قليلاً، مغلقةً بإصبعيها وكفّها طُرقَ الشهيق والزفير، مشيرةً بطرف عينٍ من عينيها، فإذ بالمعاول والفؤوس تُوضع، والمناديل تخرج التكمّم الأنصافَ السفليّة للوجوه، والجواريف تُمسك على نحو محدد...

القاهرة